فقيد المقتطف

المرحوم الدكتور يعقوب صروف

١٨٥٢ — ١٩٢٧

وقع نعيه ومشهد جنازته

كان لوفاة المأسوف عليهِ المرحوم الدكتور يعقوب سرّوف منشئ المقتطف واحد اصحاب المقتطم وقع شديد في النفوس ورنة حزن وامى في جميع الدوائر وقد فوجئ الناس بنعيهِ لان مرضهُ لم يدم سوى خمسة ايام كان قبلها يروح ويغدو ويواصل اعمالهُ بهمتهِ المعروفة ونشاطهِ العجيب فلما اذاعت صحف الصباح يوم الاحد نعيه في العاصمة وسائر انحاء القطر جزع اصدقاؤهُ ومحبوهُ وعارفو فضلهِ جزعاً عظيماً وحزنوا عليهِ حزناً كبيراً

وقد اجتمع لعلاج الفقيد نخبة من الاطباء افرغوا في مداواتهِ القصى ما بلغهُ العلم واحدث ما وصل اليهِ الطب وكان اهل بيتهِ وفي مقدمتهم قرينتهُ الفاضلة والآنسة كريمتهُ يسهرون على راحتهِ والعناية بهِ وتساعدهم الممرضات بلا انقطاع ولكن شاء الله ان يستردَّ وديعتهُ وان يختار الفقيد الى جوارهِ فقاضت روحهُ يوم السبت في ٩ يوليو الجاري في نحو الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين ليلاً وطارت الى خالقها بعد ما أدت الواجب عليها في حلبة الحياة وميدان العمل والنشاط

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الاحد اجتمع في دار الفقيد بقصر الدوبارة الاهل واعضاء اسرة المقتطف والمقطم ثم رفعوا نعش الفقيد بانفسهم من غرفتهِ ومعهم الدكتور فارس نمر وقد احنى الاسى هامتهُ وشرق بدمعهِ وغلبهُ الحزن والاسف الى مركبة النعش المجللة باكاليل الزهر الطبيعي فوضعوهُ فيها وساروا بهِ الى الكنيسة الانجيلية الكبرى بقرب فندق شبرد وتبعهم ثلاث مركبات تحمل اكاليل الزهر المرسلة من الاهالي والاصدقاء

وما وافت الساعة الرابعة حتى اخذت الجموع تفد على الكنيسة من الوزراء والعظماء والكبراء والعلماء وحاملي لواء الادب واعضاء مجلسي الشيوخ والنواب وفي مقدمتهم صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا رئيس الديوان العالي وصاحب المعالي محمد فتح الله بركات باشا وزير الزراعة بالنيابة عن حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول باشا الذي منعهُ اعتلال صحتهِ عن الحضور وبالاصالة عن نفسهِ وصاحب المعالي زكي ابو السعود باشا وزير الحقانية ولم يستطع صاحب المعالي نجيب الغرابلي باشا حضور الجنازة لانحراف صحتهِ يومئذٍ فناب عنهُ حضرة الفاضل محمود افندي كامل سكرتيرهُ الخاص وصاحب

المعالي توفيق رفعت باشا من الوزراء السابقين واصحاب السعادة عبد الحميد سليمان باشا المدير العام لشركة الحديد وعبد الرحمن رضا باشا وكيل الحقانية والسيد علي باشا وكيل الحربية ومحمود صدقي باشا محافظ العاصمة والجنرال محيي الدين باشا وزير تركيا المفوض وصاحب السعادة اوغست اديب باشا رئيس الوزارة اللبنانية السابق واحمد شفيق باشا رئيس الرابطة الشرقية واحمد زكي باشا وصاحبا الفضيلة الشيخ مصطفى المراغي رئيس المحكمة الشرعية العليا والسيد عبد الحميد البكري شيخ مشايخ الطرق وجناب القمص بطرس عبد الملك نائبا عن غبطة الانبا كيرلس بطريرك القبط الارثوذكس وعوض واصف افندي وكيل الطائفة الانجيلية وحضرات احمد شوقي بك ولويس افندي فانوس والشيخ ابراهيم الخطيب وفهمي بك حنا ويصا ومحمود ابو النصر بك والفرد شماس بك من اعضاء مجلس الشيوخ وبشرى حنا بك وعبد الرحمن عزام بك وحمدي سيف النصر بك وعبد الحميد سعيد بك من اعضاء مجلس النواب وحضرات سليم موصلي باشا وساويرس بخائيل بك ومحمد وحيد بك وحنا باخوم بك ونجيب شقير بك ويوسف بشلي بك والاستاذ الشيخ رشيد رضا وعبد الحميد اباظه بك والدكتور عبد الرحمن شهبندر وعبد الرحمن جميعي بك مدير قلم المطبوعات وسليم عز الدين بك مساعده والدكتور منصور فهمي من اساتذة الجامعة المصرية. وحضر من نقابة الصحافة الاستاذ عبد القادر حمزه بك وكيل النقابة وسليمان فوزي افندي سكرتيرها وداود بركات بك من اعضائها وجمهور كبير من الصحافيين وكثيرون من رجال القلم وكبار الموظفين والمحامين والاطباء ورجال الرسالة الاميركية وبعض من اساتذتها وجمهور عظيم من الوجهاء والفضلاء ومندوبو الهيئات المختلفة واعضاء اقلام التحرير في المقتطف والمقطم وموظفو ادارتهما وعمال مطبعتها حتى غصت الكنيسة بالحاضرين ووقف كثيرون في المداخل

وفي الساعة الرابعة والنصف وصل نعش الفقيد الى الكنيسة يحيط به افراد اسرته وقد وضع عليه اكليل من الازهار العبقة فوقف الحاضرون اجلالاً وبعد الجلوس ابتدأت صلاة الجنازة

فتلا جناب القس اسحق ابراهيم راعي كنيسة مصر الجديدة الانجيلية آيات من الكتاب المقدس عن نهاية الانسان وتكلم كلمات موجزة عن حقيقة الموت والقيامة وحسن عقيدة الفقيد فيهما وعقبه جناب الدكتور مكلارتي مدير كلية الآداب بالجامعة الاميركية

فرثى الفقيد بالانكليزية وبسط تاريخ حياته وجهاده في سبيل العلم وعما قالهُ فيه ان الفقيد الكريم قضى نحو ٥٧ عاماً في التأليف والتحبير لم يخطّ قلمهُ في اثنائها كلمة واحدة يندى لها الجبين خجلاً . واخيراً وقف القس صالح حنا الله راعي كنيسة حارة السقائين الانجيلية فرثاهُ بالعربية ذاكراً مناقبهُ وصلى الى الله مستدرّاً شآبيب الرحمة على جدثهِ ورتلت جناب المس جارتهوف من المقاتل الاميركيات ترنيمة كتائسية محزنة باللغة الانكليزية بصوت رخيم على نغمات الارغن

وبعد الصلاة الختامية حمل النعش الى المركبة وانتظم مشهد الجنازة واشترك في حمل بساطي الرحمة حضرات الوجهاء محمد وحيد بك الايوبي وعبد الحميد اباظه بك ويشرى حنا بك وعبد القادر حمزه بك وعبد الرحمن عزام بك وعبد الرحمن جميعي بك والاستاذ ادوار قصيري بك والفرد شماس بك واحمد شوقي بك وسارت الجنازة ووراءها حضرات الدكتور فارس نمر ونجيب بك صروف نجل الفقيد وسعيد شقير باشا صهره وابناء شقيق الفقيد وانجالـــ شريكه المرحوم شاهين بك مكاريوس والبرت بك نمر ورئيس تحرير المقطم وجماهير المشيعين الى ميدان الاوبرا وهناك تقدم جانب منهم معزين وركب جمهور كبير منهم المركبات الى المقبرة في مصر القديمة فوضع النعش على باب القبر والقى حضرة الكاتب المجيد الدكتور احمد فريد رفاعي بك كلمة رثاء مؤثرة أملتها عواطفهُ الرقيقة وكان صوته في اثناء القائها متهدجاً يكاد يختنق بالعبرات من شدة الحزن وتلاهُ حضرة الخطيب القدير الاستاذ لطفي جمعه بك فرثا الفقيد رثاء بليغاً ثم ناب عن حضرة الكاتبة الشهيرة الآنسة «مي» في تلاوة مرثاتها وهي نفثة من نفثات سحر البيان واخيراً انزل النعش الى القبر حيث ووري الفقيد في مرقده الاخير بمشهد من اصدقائهِ وأفراد اسرتهِ ثم تقدم المشيعون بالعزاء وعاد الجميع يذكرون تلك الحياة العاملة بخير ما يذكر به خدام الانسانية واصحاب المآثر الخالدة

ورافق مشهد الجنازة حضرات مأموري اقسام عابدين والازبكية ومصر القديمة ومعهم بعض الضباط كل منهم في دائرة قسمهِ

***

وقد انهالت تلغرافات التعزية من جميع الانحاء على اسرة الفقيد وادارة المقتطف والمقطم وهي مثابرة بمظهر الحزن والاسى وتقدير الراحل الكريم قدره واعرب كثيرون عن

اسفهم لعدم استطاعتهم حضور الجنازة لنيابهم عن العاصمة أما في غيرها من مدن هذا القطر او في الخارج .

ويضيق بنا المقام اذا حاولنا نشر اسماء حضرات الذين تفضلوا بارسال تلغرافات التعزية ورسائلها من العاصمة وسائر مدن القطر ومن سورية وفلسطين واتكلترا وفرنسا ولكننا نشير اشارة خاصة الى التعزية السامية التي تفضل صاحب الجلالة ملك مصر بارسالها من لندن حينما ابلغ خبر الوفاة . ونشير ايضاً الى تلغرافات التعزية التي تلقيناها من صاحبي السمو الاميرين الجليلين عمر طوسون ومحمد علي ومن صاحبي الدولة ثروت باشا رئيس مجلس الوزراء وعدلي يكن باشا رئيس مجلس الوزراء السابق وصاحب الفخامة المندوب السامي البريطاني بالنيابة واصحاب المعالي والسعادة الوزراء وسفراء الدول الاجنبية وسفراء الدولة المصرية في الخارج ورؤساء الطوائف الدينية والهيئات الرسمية والجمعيات العلمية والخيرية والمحافل الماسونية وغيرهم من ارباب الوجاهة والفضل المتقدم الى هؤلاء جميعاً بالشكر الجزيل ونتمنى لهم حياة حافلة بالهناءة والسعادة «مندوب المقتطف»

تأبينهُ في المدفن

كلمة الدكتور احمد رفاعي بك

مات الدكتور يعقوب صروف !

مات والد بار

مات زوج كريم

مات صديق وفي

مات عالم كبير

مات فيلسوف عظيم

مات الدكتور يعقوب صروف ! فليندبوا آلهُ ورفاقهُ . فليبكوا اخوانهُ وشركاءهُ . فليوا اخوانهُ واصدقاءهُ : فليوا بجلال ومهابة وخشوع نودعهُ الوداع الاخير ، فليوا لنتدفنوا اللحظة من كرسم السنة ، فقد مات الدكتور يعقوب صروف ! فلا اقل ، آله ورفاقهُ ، من وقفة على قبره يعيون ثرة بالبكاء ، وهام منكسة لنداحة المصاب ، ودموع حثاثة سخينة ،

وقلوب قد صحتها الفجيعة ، ونفوس كليمة حزينة وجوارح كل عضو منها يزفر ويئن ، ويهتف ويقول في بكاء ونشيج ،وعويل وتحيب «نواري الساعة الاخلاق مجتمعة، والوفاء ممثلاً ،والعلم ناضجاً،والفضل باسقاً. نواري قبساً قدسيًّا من ملكوت الحكمة والرحمة ،وسماء النبوغ والعبقرية . نواري قائدنا الكبي وشيخنا الحكيم من قاد لمصر والشرق كتيبة العلم والتحرير والفلسفة ، قدماً لا يلوي على شيءٍ ،وان اتخذتهُ الجراح او بعدت به السن او هدَّه المرض . . . .فنواري بدفنهُ يا رفاق ،العالمَ والكاتبَ والفيلسوف . فما وفى راحلكم الكريم لحظة من ايام حياتهِ ، حتى ساعة الوداع الاخير ، في بحث يسطرهُ ، او مقال يديجهُ ، او مذهب جديد ينشرهُ ، في شجاعة وحسن عقيدة

« فايه أيها الراحل العظيم . والزوج الكريم . وإية أيها الصديق الحميم والوالد الرحيم، قد عظمت لجيعتنا فيك ، وجل خطبنا برفاتك ، ونزلت بساحتنا الهموم والاحزان فطارتك،واصبنا بالدهشة والكمنة والحصر لفقدك، فما تنطق الاَّ بكلمات قطعتها الانات ، وخنقتها العبرات

« ايه ايها الراحل العظيم، لقد جلت رزيتنا ، وعظمت مصيبتنا ، فنحن الساعة يا رفاق الدكتور صرُّوف ، نواري حين ندفن الدكتور صرُّوف ، الحكمة والاصالة، نواري ركنًا عظيمًا من اركان نهضة الشرق ، نواري العقل الحصيف واللسان العفيف ، نواري انبل الشمائل واكرم الفضائل ..... وكفى انا ندفن الساعة الدكتور يعقوب صرُّوف ! ندفن الاب العيوف ، ندفن الوالد الحدب العطوف ، ندفن الرجل العظيم والشهم الانوف ، ندفن الشيخ الوديع الرحيم ، والصديق الوفي الحميم

لست مؤبنًا رفاقي ولا معزيًا - لان موقف من كان مثلي في صلته بالراحل الكريم ، وزميل الراحل الكريم ، لا يستطيع ان يكون مؤبنًا ولا معزيًا ...

لست مؤبنًا رفاقي ولا معزيًا ،لان كل من اتصلت روحهُ بتلك الروح الرثابة الفتية، الحكيمة الوادعة الرضية ، تلك الروح الهادئة المطمئنة التي تحلق اليوم في سماء الفضيلة في اوبتها الخالدة الى بارئها الرحيم، لن يكون في موقفي هذا ، موقف الوداع الاخير مؤبنًا ولا معزيًا . بل يكون راضيًا قضاء الله في خشوع . متقبلا قدرهُ في خضوع متذرعًا في موقفهِ بما لراحلنا العظيم من هدوء وجلد ، وسكون وصبر ، واذعان وحسن ايمان

وارحمتاهُ للراحل العظيم

وارحمتاهُ لاسرتهِ واقربائهِ
وارحمتاهُ لخاصتهِ واصدقائهِ
وارحمتاهُ لشريك حياتهِ ، وزميل حداثتهِ ، وشقيق نفسهِ
رحمة وعزاء للجميع

كلمة الاستاذ محمد لطفي جمعه

سيداتي وسادتي

أعيروني اذناً مصغية وقلباً واعياً فقد جئنا نواري هذا الحكيم التراب ونعدد ما نستطيع من مآثرهِ فان اكثر الذي فعلهُ صرُّوف سيبقى بعدهُ اجيالاً طويلة

لقد عاش يعقوب صرُّوف عيشة الفيلسوف ومات موت الفيلسوف معززاً مكرماً محبوباً من جميع عارفيهِ وعارفي فضلهِ واذا كان لكل انسان كتاب يتقدم بهِ لدى البحث والنشور فهذا الحكيم الراحل يتقدم بكتابين — يتقدم وفي يمينهِ سبعون مجلداً من العلم والحكمة والتاريخ والادب تمثل خمسين عاماً من الجهاد العقلي المستمر وفي يساره كتاب آخر هو كتاب الخلق المستقيم والارادة القوية والثبات والنشاط والدأب على العمل في غير جوادة ولا جمود

لم يكن صرُّوف لبنانياً ولا سورياً ولا عربياً ولا مصرياً بل كان من نوابغ العالم وافذاذه ومن حملة المشاعل المضيئة في دياجير الحياة الانسانية فهو ملك مشاع بين الشرق والغرب والعرب والافرنج بل ان اساتذتهُ وتلاميذهُ وقراء علمهِ وادبهِ هم في الغرب اكثر منهُ بكثير اهلهِ وقومهِ . فهنا ليس من يعزي ومن يعزّى بل الكل مفجوعون محزونون في هذا المصاب وشيون صوت الناعي في سائر انحاء الارض فيحدث الاسى حيثما وصل

لقد اعطى صرُّوف مثلاً حياً لاصحاب العقول وخدام العالم في الشرق بالاستقامة الفكرية والنظام والدأب على العمل بصبر وثبات . وقد شاءت الاقدار ان يموت في ختام السنة العلمية لمجلة المقتطف كأنهُ ابى ان يغادر هذا العالم قبل ان يطمئن على تمام العمل

ولقد شغلتهُ في اثناء حياتهِ معجزة الحياة والموت وسرّ الوجود والكون وعالم الارواح ونظريات الحياة بعد الموت

المرحوم الدكتور صروف في كهولته

مقتطف اغسطس ١٩٢٧

امام الصفحة ١٨٩

وها هي قد سنحت لهُ الفرصة العظمى ليقف بنفسهِ على هذه الاسرار الكبرى . لاجل هذا نظن بل نجزم بانهُ استقبل الموت هادئاً مطمئناً بل فرحاً وليس الموت لدى امثاله سوى الانتقال على عالم عظيم جليل هو عالم الابدية عالم اللانهاية واليهِ تتوق النفوس والارواح المجيدة لانهُ يدنيها من حل لغز الكون العظيم. كان يقول لي لقد عصمتني الكيمياء والرياضيات والعلوم البحتة عن الوقوع في الخطاء الذي يقع فيهِ الادباء واليوم اقول لكم ان حب العلم وحب الوصول الى الحقيقة قد عصماهُ ايضاً عن الخوف من الموت

ومنذ سبع سنين لما رأى ببعد نظرهِ وحسن فطرتهِ ان مصر قد نهضت نهضة الاسد لاسترداد حقوقها وانها تستحق الاستقلال الذي تشتدهُ جاهر برأيهِ في جريدة المقطم ونشر هذا الرأي في انكلترا ومصر بعد ان اقتنع بهِ . فهذه شجاعة عظيمة من ذلك الحكيم وخدمة للحق والحرية فلذكراها لهُ باعظم الثناء والشكر "

لو صحَّ في الشرق العربي ان يكون لكل قبر رمز يتعرف بهِ لصحَّ ان يكون رمز هذا القبر يداً بارزة تحمل في قبضتها شعلة نار تضيء العالم . فالوداع ايها الحكيم الراحل والى اللقاء في العالم الآخر

مات صروف

كلمة الآنسة «ي» التي تليت في المدفن

مات صروف ، يا آل صروف ! فجعنا واياكم فيهِ فقدناهُ من عظماء بني الانسان . فهل رأيتم خطباً تجمعت فيهِ خسارات اكثر من هذه الخسارات ؟

مات صروف يا زوجة صروف ! فهل في جمالهِ وكمالهِ من قرين احرز لها يليق بك من جمالٍ وكمال ؟

مات صروف ، يا ابناء صروف واخوانهُ واقاربهُ واصدقاءهُ وتلاميذهُ ! فقولوا هل من أب وأخ وقريب وصديق واستاذ أعز من هذا بالاكبار والاجلال ؟

مات صروف ، يا ابناء الجيل القديم ! فتعالوا واشهدوا الجيل الجديد على التفوق فيكم ، واعطوا باجزل بيان وافصح لسان ان في مثل صروف أعلى مثل يحتذى في الكفاءة والجد والنشاط والاستقامة !

مات صروف يا سوريا ! فهل بين احرارك الذين شردتهم الظلم والضغط والاضطراب

والشقاء من هو اطهر جنانًا ، واعف لسانًا ، واسمى امتيازاً ، واحصف فكراً ، واصدق نظراً وحكماً ؟

مات فتاك ، يا لبنان ! فتمال بقممك وغاباتك وارزك وهدير انهارك وقف حيال هذا النعش مسائلاً بأصواتك المختلفة « أليس بين افذاذ الامم مكان هذا الذي انجبت » ؟

مات صروف ، يا مصر ! مات هذا الذي حلّ منك في وطن هنيء كريم بعد وطن على المنتورين ضنين . فقولي هل بين الذين رحبت بهم وحبوتهم بنعمتك الحسية والادبية من هو اصفى لك من عقله وروحه وقلبه صفاً ؟ وهل بين العاملين لليقظة والتقدم من كان اجود واخلص في العلم والنور والتحرير الفكري عطاء ؟

مات صروف ، أيها العالم العربي ! أنبيا بمختلف ملكك وممالك واحزابك وقل هل في وسعك ان تقدم للغرب من هو أكمل تمثيلاً لجملة مواهبك وسجاياك

مات صروفنا ، أيها الغرب ! مات الذي كان ينشر كنوز قومه وينقل الى قومه خير ما تكتشف مدنية الغرب وتبدع . فكان بذلك من اثبل الصلات بين الشرق والغرب ومن احكم الساعين الى محو الفروق الكاذبة والتوحيد بين بني الانسان

مات صروفنا ، يا علماء العالم . انتم الذين تعرفونهُ وانتم الذين تجهلونهُ . اعلموا انهُ اضطجع لينام نومة الابد . نصارحكم نحن الذين ننعيهِ اليكم ، ان رحيله يحدث ثلمة في صفوفكم . انهُ فذٌّ بين افذاذكم في علمهِ واستقامتهِ واخلاصهِ وهمتهِ التي لا تعرف الوهن والكلال . انهُ فذٌّ في الخلق القويم العالي الذي يجب ان يتصف بهِ امثالكم . خلق نذكرهُ اجمالاً فيقرهُ كل من عرف صروفًا . واذا ما عمدنا الى التفصيل رأينا امامنا ثلاثة ارباع القرن تامة كريمة في اعوامها وشهورها وايامها وساعاتها جميعاً

مات صروف ، أيتها الحقيقة ! مات الذي كان من أنزه وادق من يستقرئك ويجري خلفك ويبحث عنك وراء مظاهر الخير والشر ، والاصابة والخطاء ، والفضل والنقص ، والحركة والجمود ، والدمامة والجمال ! فان تيسر ان تلقي لحظة في سيرك الخطير المتتابع فامثلي امام هذا النعش نعش صروف الكبير وقولي قولتك الصادق :

« هذا هو ولدي ! وهو من صميم احشائي »

***

مات صروف في الشهر الذي ولد فيهِ وقبل عيد ميلادهِ بعشرة ايام . فهو يحمل

في نشء سر الولادة وسر الموت ، وسجرة الوجود والفناء في الصور والاشكال ليتم للجوهر الخلود

مات النهارجة والبدر سادر في الفضاء يلقي على الظلام غلالة الضياء . فكان ذلك رمز الخدم التي أداها الى اللغة والعلم والشرق والانسانية . وها هو ينزل لحده والشمس جانحة الى المغيب وهذا دليل على ان الخادم النبيل أدى كل واجبه ، ودليل على ان الزارع الجليل نثر لقومه جميع الحبوب التي جمعتها الحياة في قبضة يده !

***

لا تبطئوا في ايداع جثمانه اللحد ، أيها المشيعون والمودعون ! فالارض المصرية التي عاش عليها عزيزاً كريماً ستحتضنه برفق ولين ، لانه من احق الناس بعطف تربتها الحنية ومن خير من أخذ منها واعطاها

لا تتريثوا في انزال جثمانه اللحد بعد ان عادت روحه الى بارئها . أجل . ان الشرارة المنبثقة من الشعلة الدائمة رجعت الى اصلها ، وثمرة النور المتطايرة من الشعاع الخالد غادرت هيكلها الانساني منقلبة الى مصدرها الازلي السرمدي

فلا تبطئوا في ارجاع المادة الى مربضها لئلا يتخلل الفيلسوف فيلقي عليكم من هذا المنبر درساً في ان النظام الابدي لا بد ان يستهلك حقوقه ويتم اعماله وغاياته !

ولكن قبل ان تفعلوا زودوه بالخيال ، بغصن من الارز وسعف من النخل ، وبشتيت من الاصوات والعطور والذرات والصور والاشكال ، وبذخيرة من لوعة القلوب ومفيض الاحزان ودموع الفراق . اجعلوا من كل ذلك للفيلسوف زاداً يتخذه موضوعاً لمتابعة أبحاثه! زودوه بصور النجوم ، ودقائق الكيمياء ، ومشاكل الرياضيات ، ودوران الفلك ، وتلبد المجرة ، وتقلبات الاقدار ليحللها جميعاً ويبسط لنا معانيها في رسالة وحي ينفذها الينا بوسائل لا يعرفها الا الموتى المحبون . علنا نصير ابعد فهماً ، واوسع ادراكاً ، وارحب صدراً ، واوعى لمعاني الحياة والموت

أيها الصديق ! ايها الاستاذ ! أيها الكاتب والخطيب ! ايها العلامة الحكيم ! يا رجلاً فاضلاً الفضل كله ! أيها العظيم بوداعتك وبساطتك عظمتك بعلمك وامتيازك ! انت بجمودك وسكوتك تقول « وداعاً أيها الاحياء ! » ونحن نقول بشجعنا ودموعنا قولنا باعجابنا وشكرنا « الى اللقاء في حضن الله ! »

سيرة يعقوب صروف

١٨٥٢ — ١٩٢٧

رزئ العلم وبنوه ونكب الأدب ومحبوه وناصروه ومُنيت نهضة الشرق العلمية بتواري علم من اعلامها وواحد من كبار الذين اشتركوا في وضع اساسها وبقينا نحن المشتغلين في دائرة المقتطف والمقطم في وفاة كبيرنا ومشيرنا نفسر به العلم والادب ثروة طائلة وفقدنا نحن من كان كالاخ الأكبر للمتقدمين منا وكالاب الشفوق للياقين وانهار سند كنا نعول عليه اذا تعقدت المشكلات ودجا ليل الخطوب وسال سيل المضلات . وكنا نحسب مما نشهد من نشاطه ودأبه على العمل وما نعرف من سلامة بنيته انهُ سيظل اعواماً اخرى في طليعة العاملين ولكن شاء الله ان يختارهُ الى جواره وهو لا يزال في مثل مظاهر الشباب و بذلك قضى القضاء فلا حول ولا قوة الاَّ بالله

وافاهُ القدر المحتوم بعد مرض قصير ما امهلهُ سوى ايام قليلة ولم ينجح فيه علم الاطباء الالباء ولا ردت عادية عناية الاهل ومحبة الاصدقاء وحنان الزوجة و بر الاولاد وما استطاع الداء ان ينل من مضاء عقله او يشوب صفاء ذهنه ولا اضعف من تجلده وصبره فاسلم الروح قبيل نصف ليل الاحد بعد جهاد طويل مذكور في خدمة العلم والشرق ستظل آثارهُ بارزة في نهضة شعوب الناطقين بالضاد وانطفأ سراج حياته الوهاج بعد ما اضاء اندية العلوم والفنون وطارت روحهُ الى خالقها في سكينة الليل المقمر وقد هدأت الحركة ودنا الخلق من الخالق كأن الكون الذي كان الفقيد يحجهُ في حياته لازمهُ الى ساعة مماته

مولدهُ ونشأته المدرسية والعلمية

ولد الفقيد في قرية حدث بيروت في ساحل البحر المتوسط وفي سفح جبال لبنان في شهر وليو سنة ١٨٥٢ في بيت عُرف افراده بالفضل وحسن التربية وطابق صباهُ يزوغ شموس العرفان في الربوع السورية وكان والداهُ بعيدي النظر فلما شهدا ذكاء نجلهما وسمعا شهادة معلميه في مدرسة سوق الغرب فيه عقدا العزم على مواصلة تعليمه الى النهاية وكان للاميركيين مدرسة عالية في قرية عبيه من مصايف لبنان فارسلاهُ اليها في زمان كان الاقبال على العلم والتعليم في تلك الديار شذوذاً والراغبون فيه يعدون على اصابع الكفين وهناك بدت مظاهر كفاءته فلما انشئت كلية بيروت الاميركية المعروفة اليوم بجامعة بيروت

الاميركية كان في مقدمة المنتظمين في سلك التلمذة فيها وكان من افراد الفرقة الاولى من متخرجيها وظل في الاعوام الاخيرة من حياته الحافلة بالاعمال النافعة كبير متخرجي تلك الجامعة المشهورة في جميع الاقطار

وبعد ما مارس التدريس عامين في مدرستي صيداء وطرابلس الشام العاليتين للرسالين الاميركيين دعاهُ مجلس ادارة الجامعة الى تدريس الكيمياء والعلوم الطبيعية والعلوم الرياضية ثم اللغة والبيان وقد كان يذكر ذلك دائمًا و يعدهُ اكبر ما اهلهُ لعملهِ في المقتطف فصادف هذا من نفسهِ هوى و برع في ما نوخاهُ وشهد لهُ اساتذتهُ السابقون وفي مقدمتهم المرحوم الدكتور فانديك بالنبوغ والنشاط. وكان حبهُ العلم لنفسهِ من اعظم البواعث لهُ ولشريك حياتهِ واخيهِ الدكتور فارس نمر على تأسيس المقتطف سنة ١٨٧٦ وقد انضم اليهما شريكهما واخوهما الثالث المرحوم شاهين بك مكاريوس فكان اشتراك هؤلاء الثلاثة من سن الشباب الى سن الشيخوخة مضرب الامثال في الاتحاد والتعاون والنشاط والاجتهاد وجني ثمار هذه الفضائل والسجايا فاثبتوا بها ان الاخ الصديق قد يكون اوفى من الاخ الشقيق

وفي سنة ١٨٧٨ اقترن بسيدة من خيرة الفتيات والمهذبات في سورية ولبنان وهي السيدة يانوت بركات فكانت لهُ خير معوان في جهاده العلمي بحسن تدبيرها وكرم خلالها وشدة عنايتها براحة زوجها ورفاهيتهِ وعطفها على الغايات العظيمة التي وقف نفسهُ عليها وصار بيتهما في رأس بيروت بجوار الجامعة منتدى للادب والفضل يؤمهُ العلماء والادباء من جميع الاقطار فيلقون فيهِ من البشاشة وحسن الضيافة ما اكسب الزوجين الشابين صداقة المحبين والاصدقاء واحترامهم في المشارق والمغارب ورزقا نجلها نجيب بك وكريماتهما الثلاث اللادي شقير قرينة صاحب السعادة السر سعيد شقير باشا والمدموازل انن والسيدة السر مدام الفريد بك تويني من اشهر بيوت بيروت. فكانت حياة هذين الزوجين خير قدوة لما يجب ان تكون حالة الازواج من التعاون والتفاهم والغبطة والسعادة والهناء

وقد انتشر تلاميذ الفقيد وتلاميذ تلاميذهِ كما انتشرت كتاباتهُ وتعاليمهُ في جميع الاقطار العربية و بلدان اوربا واميركا واستراليا وافريقية وسيقابل نعيهُ منهم بالاسى والاسف على فقد من احسن تعليمهم وتهذيبهم واسدى اليهم جانبًا من ثروتهِ العلمية فمهد لهم سبل النجاح والفلاح وسيظل هؤلاء الذين كانوا تلاميذهُ ثم صاروا اخوانهُ واصدقاءهُ يذكرون فضلهُ عليهم وعنايتهُ بهم وحبهُ لخيرهم وتفهمهم ويترحمون عليهِ عداد هذه

المكرمات ويستمطرون على جدثهِ شآبيب الرحمة والرضوان

الفقيد والمقتطف

نبت المقتطف نبتاً صغيراً ليكون في الشرق رائد النهضة العلمية التي اخذت تظهر وتقوى في الثلث الاخير من القرن الماضي وليكون صلة علمية وادبية واجتماعية بين الشرق والغرب وكان منشأهُ الشابان يخوراني وهما يتوليان تدريس العلوم والرياضيات وسائر المواد التي عهد اليهما في تدريسها في الجامعة الاميركية . وطار صيت المقتطف وذاعت انباء علم صاحبيهِ فلما اشتدت وطأة التضييق على المطبوعات في سورية فكّرا في الرحيل الى الولايات المتحدة لولا ان اصدقاء لهما اشاروا عليهما بنقله الى هذا القطر السعيد وقد اخذت العلوم والمعارف تزهو فيهِ بعناية حكومتهِ ورعاية البيت العلوي الكريم فزاراهُ باحثين ولقيا من رعاية اقطابه وزعمائه وفي مقدمتهم المغفور لهُ الخديوي توفيق والمرحومان شريف باشا ورياض باشا وترحيبهم وحفاوتهم وتنشيطهم ما حملهما على المجيء بهِ الى مصر حيث استقبلهُ الادباء والعلماء والفضلاء بما شدد عزيمة منشئهِ وبعثهما على توسيع نطاق مباحثهِ وزيادة ابوابهِ واتقان طبعهِ ومن ذلك الحين اتخذ المقتطف منزلة خاصة وصار مصباح العلم في الديار العربية

وانشئ المقتطم في سنة ١٨٨٨ فقام الدكتور صرّوف بتحرير المقتطف بهمتهِ المعتادة وتدقيقهِ المشهور وظل يباشر العمل فيهِ ويشرف على اعدادهِ الى آخر اسبوع من اسابيع حياتهِ العملية وقد وجدنا في منزله استهلال رسالة شرع يكتبها قبيل ذهابهِ الى الفيوم لتنشر في الجزء القادم من اجزاء المقتطف . فصار المقتطف دائرة المعارف والفنون الحية في العربية وعنوان نهضة العلم فيها جارى التقدم العلمي المطرد في ابواب الفلسفة والحكمة والعلوم النظرية والعملية والاكتشافات والاختراعات وتحوّل الادب في العربية وسواها من اللغات حتى صارت مجموعاتهُ العظيمة لواحد وخمسين عاماً مرجعاً يرجع اليهِ الباحثون وهدياً يهتدي بهِ المحققون

وافنى الفقيد في خلال حياتهِ اطياناً ومباني واموالاً كان يراها كلها في المقام الثاني بعد المقتطف ولا ينفق عليها من العناية والوقت عشر معشار ما ينفق منهما على هذه المجلة التي كان يحبها حب ولد لوالدهِ ولا يهنأ لهُ عيش الاّ اذا اتم عملهُ فيها على الوجه الاكمل واتيح لهُ المحافظة على صبغتها العلمية الرفيعة التي انشئت لاجلها

وكان يحب البساطة في ايراد العبارة ويجتنب الحوشي من اللفظ والمعقد من الجمل مع

مراعاة قواعد اللغة مراعاة تامة والتزام اصولها وقواعدها لان غرضه الاكبر كان ايصال المعاني الى الاذهان بأوجز الوسائل واسهلها وقد وصف بعض الكتاب اسلوبهُ في الكتابة فقال انهُ السهل الممتنع

التقييد والتحقيق العلمي

كان التقييد مطبوعاً على حب البحث والتحقيق شأن العلماء الحقيقيين يأبى ان يأخذ القضايا والنظريات بظواهرها وقد يقضي ساعات وايامًا في مكتبتهِ الكبيرة في ادارة المقتطف او مكتبتهِ الاخرى الواسعة في دارهِ او دار الكتب المصرية في درس مسألة علمية او نظرية فلسفية او معادلة كيماوية ولا يملُّ ولا يكلُّ حتى يصل الى الحقيقة المنشودة ولا يلويهِ عن البحث عنها الى اجل مسمى الأ واجب آخر لا سبيل الى تأجيله. اما ما سوى ذلك فلم يكن لهُ نصيب من اهتمامهِ عند اشتغالهِ بكشف المعميات وحل المسائل العويصة والحرص على التماس الحقيقة دون سواها واماطة اللثام عن الخرافات والخزعبلات والتخيم والنظريات الفاسدة والمقدمات الضعيفة. وكان اذا عرضت عليهِ مسألة من المسائل واجهها بثاقب فكرهِ وشرع يعالجها فوراً من الوجهة العلمية فيرد المسببات الى اسبابها نابذاً القشور غير حافل الأ باللباب. والذي يطالع باب الاسئلة والاجوبة في مجلدات المقتطف وما فيهِ من اجوبة سديدة في مختلف العلوم والفنون والحوادث والحالات يدهش مما وعى صدره من الحقائق والمعلومات وما كان عليهِ ذهنهِ من المضاء ونظرهُ من صدق الحكم والاستنتاج وما انطوى عليهِ من الصراحة وحب الحق. وكان مع عظم احترامهِ للعلماء والمحققين لا يسلم بأقوالهم ونتائجهم ومذاهبهم العلمية عفواً ولطالما ناقش في المقتطف نظريات لهم لم يرتح الى صحتها واقام الحجة والبرهان على ضعفها او فسادها فكانت الايام تأتي محققة لرأيهِ مؤيدة لنظرهِ

وقد اضاف الى ثروة اللغة العربية الفاظاً واصطلاحات علمية عديدة ابتكرها او نحتها او استخرجها من المظان المجهولة وساقها في عرض مقالاتهِ وصقلت بعد ذلك بالاستعمال وكثير من هذه الالفاظ والاصطلاحات في العلوم العديدة التي كان يجيدها وفي المباحث الفلسفية والادبية والتاريخية التي كان لها من المقتطف نصيب كبير

الفقيد كمعلم ومرشد

وكان من جراء هذه الصفات واخصها الاخلاص في العمل والرغبة العظيمة في نشر العلوم والمعارف التي كان يحبها و يهواها ان كان الفقيد من خير المعلمين والمرشدين. يعرف

هذا تلاميذهُ والذين اشتغلوا معهُ وكثيرون من الذين عرفوهُ وشهدوا مباحثاتهِ وسمعوا احاديثهُ. وكنا نحن المشتغلين معهُ في هذه الادارة من الكتاب والمحررين اذا ذهب الواحد منا اليهِ بسؤال او استفهام وهو مكبٌّ على كتاب يطالعهُ او مقالة ينشئها او رسالة يصححها او قضية علمية او رياضية يعالجها يرفع رأسهُ باسمًا في وجه السائل ويترك علامة على عملهِ في موضع الانقطاع عنهُ ثم يقبل على محدثهِ ويسمع اقوالهُ حتى اذا استوعبها طفق يجيب عن السؤال بعبارات بسيطة وشرح وايضاح يحلان المعقد ويفتحان المغلق وكثيرًا ما كان يستعين على ايضاح مرادهِ بالرسم على الورق حتى يستوفي الشرح والايضاح

ولطالما كان يدعو عاملاً من عمال المطبعة او موظفًا من موظفي الادارة او محررًا من محرري المقتطف والمقطم ويبسط لهُ امرًا يتعلق بعملهِ او ينبههُ على خطإٍ وقع فيهِ بمنطق عذب وروح بسم على العطف والرغبة الصحيحة في الخير فاكتسب حب مرؤوسيهِ المقرون بالاحترام وكانوا كلهم يشعرون ان الدكتور صروف خير من يلجأون اليهِ في حالات الحاجة وساعات الشدة والضيق فيلقون منهُ صديقًا صدوقًا ومحبًّا غيورًا

ولهُ فضل عظيم على الذين كانوا ينشرون رسائلهم في المقتطف فيصحح خطأ بعض منهم وينبههم عليهِ ويشير على آخرين باختيار وجوه معينة من البحث وكل ذلك بعبارة الصديق لصديقهِ والاخ لاخيهِ

صفاته واخلاقه

وكان الفقيد مع علمهِ الغزير واختبارهِ الكثير وما احرز من مقام ونفوذ وكرامة واحترام من اشد الناس ميلاً الى البساطة وقد قال احد عارفيهِ من الذين اشتغلوا معهُ ان قلب الدكتور صروف كقلب طفل ليس فيهِ موضع للغل والحقد وسائر هذه العيوب التي تشوب صفاء النفس. وكانت اسارير وجههِ تنم على ما طوى وراءها من خلق في صدرهِ يغلب عليهِ الابتسام ولا تفارقهُ البشاشة فاذا عرض لهُ ما يقضي بالامتعاض او الانقباض لا يلبث ان يسترد بشاشتهُ

وكان من اشد الناس كرهًا للخصام والشقاق واقربهم الى الصفاء والوفاق ومع غزارة علمهِ وسعة اطلاعهِ لم يكن يعرف للفظ العداوة معنى ولا يدرك لكلمة الحقد مغزى وعندهُ ان المرء ملزم بان يسدي المعروف والجميل ويبسط يد المعونة والاسعاف وكان يعد ذلك واجبًا اوليًا لا يستحق من ينهض بهِ الشكر عليهِ

حب الفقيد لمصر

اذا أتيح لكاتب هذه السطور من العمر والفراغ من العمل ما يمكنهُ من كتابة سيرة الفقيد كما يرجو فسيطلع الناس على وقائع وأحاديث واقوال تثبت ان الدكتور يعقوب صروف كان من أشد الناس حبا لمصر وأهل مصر وتقدم مصر وكل ما يتعلق بمصر وقد كان يتجه بعمله وأقواله الى كل ما يعتقد انهُ يعود عليها بالخير وكان شديد الاعجاب بالنهضة المصرية يكبر يقظة الزعماء واقبال الشبان والشابات على مناهل العلم والمعرفة ويطالب بالارتقاء العلمي والادبي والاصلاح الصحي والزراعي والتقدم الصناعي والاجتماعي ولطالما توسط في حل معضلات سياسية لا يعرف الناس عنها سوى اليسير كرهًا منهُ في الاعلان عن نفسهِ . وقد كان يعد مصر وطنهُ الحقيقي يحب هواءها ويطيب لهُ ماؤها ويتم بصداقة فضلائها وعلمائها وكبرائها ويتمنى لها الخير ويتوقع لها الفلاح ويتوق الى استقلالها وينهوضها بنفسها الى غايتها وهي واقفة على قدميها

وقد عرفت مصر لهُ فضلهُ وأيقنت اخلاصهُ وما كان اجماعها على تكريم المتطف في عيدهِ الخمسيني برعاية جلالة الملك وحضور الامراء والوزراء والعظماء وتمثلي الهيئات ضربًا مظهر من مظاهر عقيدتها بهذا العالم الفاضل الذي غرس في مصر ما غرس من حدائق القريحة وانبت في ارضها الخصبة ما انبت من ثمار العلم والعرفان. وأعترف لهُ بصدق الخدمة ونزاهة المقصد وسمو الغاية والغرض

***

هذه لمحة موجزة كتبها هذا العاجز الضعيف ونار الحزن تضطرم بين الضلوع والعين تسيل أسى على من كان لكاتبها بمقام الاخ الكبير والمرشد الحكيم والرئيس المشيع بالعطف والمحبة . وهي لمحة كان اولى الناس بكتابتها اخوهُ الروحي وشريكه في حياتهِ العاملة الدكتور فارس نمر ولكن الحزن العظيم على فراق أحب الناس اليهِ عقد لسانهُ وقيد قلمهُ البليغ بعد ما شرب كأس فراق شريكيهِ العزيزين فهو اليوم اجدر الناس بالتعزية واولاهم بالعطف على ما أصابنا جميعًا

كتبت هذه الكلمة لا رغبة في تأبين فقيد عزيز ولا حبًا بالفخر والمباهاة ولكن اطاعة لصوت الواجب ولا يؤسفني بعد الحزن العميق على وفاتهِ سوى قصوري في هذه الساعة عن ان افيه حقهُ من الرثاء نفعنا الله بسيرتهِ وقدوتهِ وعلمهِ ومكارمهِ واسكنهُ فسيح جنانهِ وأمطر جدثهُ عارض الرحمة والرضوان وعوضنا خيرًا

خليل ثابت

مثال نادر

كان مثالاً نادراً في هذا الشرق للحياة العلمية الخالصة ، وكان مثالاً نادراً للصبر والمثابرة ، وكان مثالاً نادراً لطيبة النفس وحسن السيرة ، فنعيهُ خبر لا يجتزأ بذكرهِ في اخبار الوفيات او في ثنايا الصحف ولكنهُ حادث من حوادث العصر تسير بهِ الانباء وتستخرج منهُ العظات

لا نعرف رجلاً في الشرق الحديث قضى حياتهُ كلها للعلم والتعليم عاكفاً على الدرس بين الكتب والاوراق لا يشغلهُ عنها شاغل من ملاهي الحياة كما انقضت تلك الحياة المباركة التي انطوت اليوم بوفاة الدكتور صروف . ولا نستثني من ذلك الاَّ فرداً او فردين نتمنى لهما طول العمر وتيسير الظروف وحسن الافادة وطيب الجزاء . ولسنا نعرف مجلة في الشرق كلهِ عمرت ما عمرهُ المقتطف وافادت ما افادهُ في نشر المعارف وتنوير الاذهان وتحبيب القراء في العلم والدراسة ، ولسنا نوليهِ غير حقهِ من الثناء حين نقول انهُ كان في حياتهِ المديدة خيراً من مائة مدرسة تعلم طلابها القشور وتعنى بظواهر المعرفة اضعاف عنايتها بالفهم الصادق المفيد

ولقد كان المقتطف مجلة علم حديث تخص العلوم بمكانها الاول وتعرض للآداب من ناحيتها القريبة الى تحقيق العلم وتجريب العمل ، ولكنها على هذا افادت الادب خير ما افادتهُ مجلة في اللغة العربية ووجهت كثيراً من القرائح الى قراءتهِ والشغف بهِ والتوسع فيهِ . وكاتب هذه السطور يذكر انهُ لم يعرف اسم المعري الاَّ من المقتطف فكان ذلك اول عهدهِ بقراءة شعرهِ ونثرهِ والبحث في فلسفتهِ والكارهِ . وكان اول اطلاعي على المقتطف في أعداد منهُ متفرقة بعضها قديم وبعضها حديث رأيت في احدها مقالاً عن المعري ومعهُ فيما اذكر مقال عن « الطائر الطنان » — فاقبلت من ذلك الوقت على هذه القراءات وفهمت منذ ذلك الحين ان العناية بالطير والتأمل في خلائق الله ليست بالعبث الذي يلام عليهِ الصغير ولا هي بالرفع الفارغ الذي يخفي منهُ التلميذ المجتهد ويتوكل بهِ اهل البطالة ، وذكرت لهُ هذه البدء حين كتبت عن المعري بعد بضع عشرة سنة ادرسهُ والفايل بينهُ وبين دارون وشوبنهور ، فوجدت كثيراً من السرور في ان اكتب تلك المقالات في المقتطف صديق طفولتي القديم ، ولذَّ لي ان اعرّف امثالي من الناشئين

والى القارئ حكاية بسيطة تصف هذه الاخلاق في فقيدنا الراحل فقد حدث ان مدير الادارة في المقتطف والمقطم تلقى ذات يوم طلباً من مدير ادارة جريدة يومية اشتهرت بخصومتها للمقطم والنيل من اصحابه بان يميره مبلغاً من ملفات الورق لآلة الطباعة الدوّارة فلبى مدير ادارة المقتطف والمقطم طلب زميله ولكنه رأى قبل تسليم المطلوب ان يستشير اصحاب العمل فذهب الى الدكتور صرّوف وقص عليه القصة ولم يقل انهُ وعد زميله بالورق وترك الرأي للفقيد فحدق فيه فقيدنا الكريم واجابهُ قائلاً « ان جاع عدوك فاطعمهُ وان عطش فاسقهِ فانك ان فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه » وهي آية من آيات الانجيل الشريف سردها في الجواب ولم يزد شيئاً عليها

وكان شديد البرّ بوالديه وشقيقيه وشقيقاته وعاش والداهُ زماناً طويلاً مغتبطين بنجاحه وماتا قريري الاعين بما احاطهما بهِ من عنايته وبرّهُ فكان مثال الولد البار كما كان مثال العامل الحكيم والعالم الذي لا يشق لهُ غبار

وكان صديقاً وفياً لاخواته وخلانه واولادهم وذوي قرباهم يفرح لفرحهم ويرتاح الى نجاحهم ويحزن لحزنهم ويشاطرهم همومهم واتراحهم لا بالقول فقط بل بالفعل وبكل ما يتاح لهُ من وسائل المشاركة وله في ذلك فعال لا يعرفها سوى اقرب المتصلين بهِ وقد عرفوها بحكم العمل معهُ او اتفاقاً فقد كان الفقيد يصنع هذه المآثر ويسراهُ لا تدري بما فعلت يمناهُ ولطالما تمنى ان يكون اقدر مما كان على صنع الجميل واسداء المعروف

ومما يؤثر عنهُ حسن عنايته بنجاح الشبان والشابات وتنشيطهم بالنصح والارشاد والنقد الرقيق ولهُ من هذا القبيل فضل كبير على جمهور من ادبائنا وكتابنا ولاسيما الحزين كاتب هذه السطور فقد كان قبل ان يتصل بادارة المقتطف والمقطم يلقى من الفقيد الكريم من الارشاد والنصح والتصحيح ما يعدهُ من اكبر العوامل في ما تلا ذلك من حياته

ومما هو جدير بالتنويه في هذا المقام حبهُ الشديد للصراحة وقد عرز فيه هذه الصفة شدة تعلقه بالعلوم الطبيعية والرياضية وما تنطوي عليه من نواميس لا ترد ولا تقهر حتى ان صراحتهُ هذه كانت في بعض الاحيان علة عثرات والتباس وسوء تفاهم فكان يزيل ما ينشأ عنها من ذلك وسواهُ بما اشتهر بهِ من اخلاص الطوية وصدق العاطفة وحب الحق والرغبة العظيمة في الاصلاح

وكان وجيز العبارة في المجاملات لشدة حيائه فاذا بدرت من محدثه عبارة مدح وثناء عليه او اعجاب بعمل من اعماله تورد خداهُ خجلاً وعقد لسانهُ وظل كذلك الى آخر

ايام حياته . ولا يزال الذين شهدوا حفلة العيد الخمسيني للمقتطف في دار الاوبرا في العام الماضي يذكرون كيف انهُ وشريكهُ ابيا ان يجلسا في المجلسين المعدين لهما على المسرح ولا يتسنى موقف هذا العالم العظيم يوشئذٍ والعبارة الرقيقة التي شكر بها ملك البلاد واقطابها وجلةُ الاحتفال والذين لبوا دعوتها تأييداً للعلم واعترافاً بفضل العرفان

نشاطهُ واجتهاده

وقد كان من اسباب مقدرتهِ على المضي في عملهِ الشاق ومواصلتهِ للدرس والبحث والتصنيف والتأليف الى السن التي يعمد فيها الناس عادة الى التماس الراحة حسن بنيتهِ ونشاطهِ الفطري وبساطة معيشتهِ واعتدالهِ في كل شيء وقد ظل الى الاسبوع الاخير من اسابيع حياتهِ الحافلة بالعمل المثمر يأتي الى ادارة المقتطف والمقطم عند الساعة الثامنة من الصباح و يظل فيها الى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر حتى اذا عاد الى دارهِ وتغدى واستراح قليلاً دخل مكتبهُ وقد كسيت جدرانه بخزائن الكتب والمعاجم والانسكلوبيذيات وتكومت على مائدتهِ الصحف والمجلات فيجلس فيهِ يطالع و يكتب ويحقق و يدقق وكان اهل بيتهِ يلقون أعظم مشقة في اقناعهِ بالخروج معهم الى النزهة والرياضة في المساء فاذا عرض أمر يقتضي الانتقال هبَّ من مكانهِ كأنهُ نفق في العشرين فكان من النادر ان يعقد اجتماع هام أو تقام حفلة ادبية او علمية او يحتفل بتكريم فاضل تابع الاَّ وفي مقدمة الحاضرين ذلك الشيخ الشاب كما كان الدكتور مورتون هاويل وزير اميركا المفوض يلقبهُ كلما لقيهِ . وبالاجمال فان لذة الحياة الكبرى عندهُ كانت العمل ولاسيما العمل العلمي والادبي فحياتهُ من صباهُ الى وفاتهِ كانت وقفاً على هذا الجهاد

الفقيد في بيته وبين اخوانه

وكان الدكتور صروف في بيتهِ مثالاً للرجل المهذب الكامل رحب الصدر حلو الحديث يزينهُ بما وعى في صدرهِ من العلوم والاخبار والحوادث يفكه بها سامعيهِ وكان مضيافاً يلذُّ لهُ ان يرى اصدقاءهُ واخوانهُ حول مائدتهِ ويبالغ في الترحيب بهم كذلك كان في بيروت في بدء حياتهِ الزوجية وكذلك ظل في مصر طول عمرهِ وكان يجد من قرينتهِ الكريمة الفاضلة أكبر مؤيد لهُ بما تحلت بهِ من الفضل والكمال وسلامة الذوق ورقة الجانب وشدة العطف واطلاق نور البهجة في منزلها الذي كان مقصد العظماء والكبراء ومجتمع العلماء والفضلاء وقبلة المعارف والاصدقاء

بالمعري على الصفحات التي عرفت منها اسمهُ وتلمست منها ذكرهُ وشعرهُ ، وان امثالي في هذه النائدة لكثيرون بين قرّاء العربية من كل قبيل

***

رأيت صروفًا — اول مرة — في دار المقتطف والمقطم يوم ان كانت على مقربة من شارع عبد العزيز ، ودعاني الى زيارتهِ ابيات من الشعر قرأتها في رحلة لامارتين الى الشرق ينسبها الى شاعر من شعراء لبنان . فاردت ان اعرف ذلك الشاعر وان اطلع على ديوانهِ ان كان لهُ ديوان ، وخطر لي ان اسأل عنهُ اولى الناس بمعرفتهِ من علماء لبنان وادبائهِ في هذه الديار ، فقصدت دار المقتطف واستأذنت على الدكتور فالفيتهُ بين المجلات والكتب والمسودات يعيد نظرهُ في بعضها و يوقع عليها بما يراهُ ، وسألني عن مقصدي فاخبرتهُ بهِ فتبسم ، ثم تأملهُ قليلاً ونهض الى بعض الكتب يتصفحها و يقلب فهارسها ، واطال في ذلك حتى خجلت من تضييع ذلك الوقت عليهِ وصرفهِ عن عملهِ الذي كان منصرفًا اليهِ ، وهممت بالتسليم فاستمهلني قليلاً ثم اعتذر واحالني على بعض الادباء من السوريين عسى ان يكونوا على علم بصاحب تلك الابيات ، فشكرتهُ وفي نفسي اعجاب ببراعتهِ وصدق رغبتهِ في الافادة ولطف حديثهِ الذي يشفُّ عن المودة وسلامة الطوية ، ورأيتهُ بعد ذلك مرات فما تغيرت تلك الصورة التي رأيتهُ عليها اول مرة وما اختلف في منظرهِ ولا في وداعتهِ ولا في صدق ميلهِ الى العلم والمتعلمين اقل اختلاف

***

وكان هذا العالم الجليل على صراحة مأنوسة يتذاكرها عارفوهُ بالمحبة والاجلال ، فلا يدّعي علم ما لا يعلم ولا يتردد في الاعتراف بما ينوءُ عملهُ والاطلاع عليهِ . لقيتهُ على على اثر انتخاب برجسون للاكاديمية الفرنسية فحادثتهُ في آراء هذا الفيلسوف والمقابلة بينهُ و بين وليام جيمس الذي يعرف عنهُ الدكتور غير قليل . فقال لي انني لم اقرأ شيئًا لبرجسون هذا . ثم ضحك وقال : أيعجبك هذا الاعتراف ممن يحسبون فلاسفة !... قلت ان في هذا الاعتراف يا استاذ لشيئًا كثيرًا من الفلسفة الحقيقية . قال : حسن ! ولكني اصارحك انني لا افهم هؤلاء الذين يخبطون فيما وراء الطبيعة ولا ادري لهم اولاً من آخر . فتحت كتاب ابن رشد فيما بعد الطبيعة فما تجاوزت منهُ الاسطار الاولى حتى مللت وضاق

صدري احاجيه ومعمياته ، واقتلته وما اتيت فيه على صفحة . انى لا اعرف كيف يفهم هـذا الكلام

على انهُ كان يضع الصراحة في مواضعها ولا يحب ان يصدم بها معتقداً او يهجم بها على شعور ، وكانت سنتهُ في الكتابة ان يقرر الحقائق كما هي ويدعها تعمل عملها في النفوس والافكار . فان وافقت العقائد فذاك وان لم توافقها فالفوز بينهما للصالح الرجيح ، وسألتهُ في هذا الرأي يوماً فقال لي : انني أعرف طريقين لعبور التيار . احداهما ان تقطعهُ من شط الى شط في خط مستقيم لا تلتفي امام عقبة ولا تحيد عن قوة مانعة فتصل او لا تصل ، والاخرى ان تماشي التيار حتى تصيب منهُ منفذاً الى سبيلك فانت بالغ الى غايتك من سبيل طويل ولكنهُ مأمون

وكان يحب الامثال ويحسن ان يضربها ويستشهد بها في مواطن الاستشهاد . جرى ذكر منافسة غير شريفة بين بعض الكتاب فقال رحمهُ الله : كنت ارى في صباي اطفالاً يلعبون الكرة فلاحظت ان فريقاً منهم كانوا يعدون امام اصحابهم ليسبقوهم الى التقافها، وان اطفالاً آخرين كانوا يجذبون اصحابهم الى الوراء ليمنعوهم عن الوصول اليها — قال : فهاتان وسيلتان للمنافسة احداهما تنشط بالهمة الى السبق والتقدم والاخرى تقعد بالمرء وبين بنانهُ عن الوصول — والثانية واسفاه هي الغالبة على الشرقيين

***

والذين يتابعون المقتطف يعلمون ان العالم الفقيد كان من اصحاب الوسيلة الاولى في منافسة المناجين وسابقة العاملين همهُ على نشر المعارف والآداب — فما اعتدى على احد منهم ولا بالغ في رد الاعتداء ، ولكنهُ كان يمضي على منهاجه في وقار الحكيم وتؤدة الحليم وثقة المطمئن الى غايتهِ العارف بما حولهُ ، فما يذكر الذاكرون لهُ الا ادباً جماً وخلقاً رضياً وتكريماً للعلم واعراضاً عن الجاهلين، وانهُ ليمضي مبكي السجايا كما مضى مبكي المعارف ويتعاهدُ النعاة اليوم وما في الشرق الا لسان هاتف بالاسف عليهِ ذاكر لهُ بأجمل الثناء واحسن التقدير

وعزاء المحبوبين في الفقيد — وعالم العلم والادب كلهُ مجموع فيهِ — انهُ قدم بين يديهِ عملاً نافعاً لا ينقطع مدة ولا ينفد عدة ، وانهُ يبقيهِ بعدهُ مكفول البقاء والتقدم في امانة خلفائهِ الحريصين على ذلك الاثر الخالد الجليل ، وانهم بذلك لجديرون

البلاغ عباس محمود العقاد

المرحوم الدكتور صروف
امام احد الاعمدة المضلعة التي كُشفت حديثاً في سقارة وقد ذهب
لمشاهدتها بنفسهِ ليكتب عنها في المقتطف

مقتطف اغسطس ١٩٢٧
امام الصفحة ٢٠٣

كيف عرفتهُ

يعز عليَّ حين ادير طرفي افتش في مكانك لا اراك

نعم يعز عليَّ ان ينطفئ ذلك السراج الوهاج وتخفي عني تلك الروح الطيبة الزكية فاذا لعبتها اليوم فانما أنعى العلم ومكارم الاخلاق وحسن الطوية

عشقتُ هذه الروح العالية صبيًّا فكنت ارقب ظهور المقتطف اول كل شهر لأقرأ فيهِ ما كانت تخطهُ من المباحث العلمية الجليلة في الزمن الذي كان فيهِ لقب دكتور لا يعرف بهِ في مصر الاَّ اطباء الاشباح لا اطباء الارواح . وكنت اتمنى ان ارى ذلك الجسم الذي وسع تلك الروح السامية حتى اذا ما دخلت مكتبي منذ نيف وعشرين عامًا أيامَ بدأت بوضع الاسماء التاريخية لشوارع القاهرة واذا بشخص مهيب الطلعة معتدل القوام حاد البصر باش الوجه كامل المندام مع وقار واحتشام يمدُّ إليَّ يدهُ للسلام قبل ان امد اليهِ يدي فخجلت جدًّا لهذه المبادرة منهُ وقدمت اليهِ كرسيِّ الخاص ليجلس عليهِ فابى الاَّ ان يجلس بجانبي ودعوت بالقهوة فاعتذر قائلاً انهُ لا يأخذ شيئًا بين الافطار والغداء كل هذا وانا لم اعرف الزائر الكريم حتى اذا ما جرنا الحديث الى ذكر القاهرة وتاريخها شرعت اسرد عليهِ شيئًا من طوبوغرافية المدينة وشعرت وتنثر كأني بين يدي والدي او استاذي لما تبينتهُ في عينيهِ العسليتين من الحنان والعطف الاكيدين . وقد شجعني هذا الشعور على ان اسأل من هو الاستاذ فقال « صروف » فتحيرت عند سماع هذا الاسم العظيم في كيفية اظهار سروري بلقياهُ وعجزت عن القيام بما يليق لهُ من الاجلال والاكرام فادرك رحمهُ الله بني ذلك وقال جئتك لاخبرك ان عندي مكتبة جامعة هي تحت امرك تطلع على ما فيها اين شئت وكيفما اردت لتستعين بها على مباحثك التي انت قائم بها الآن عن مخطيط القاهرة القديمة فزاد قدر الدكتور في نفسي ورأيت ان عبارات الشكر مهما ادليت بها صغيرة امام كل ذلك العطف من شخص يسعى اليَّ من غير سابقة معرفة و يتقدم لي مثل هذا الجميل وشجعني تشجيعًا عظيمًا على مثابرة البحث فابديت كلمات الشكر بجمل من الدعاء لهُ وودعني وداع الوالد وخرج وكأنهُ اخذ قلبي معهُ

فصرت من ذلك الحين اتردد عليهِ وارتشف من بحر علمهِ الغزير الواسع في مختلف العلوم وابواب العرفان. وكان رحمهُ الله عارفًا بمواضع كتبهِ حتى اذا ما سألتهُ عن كتاب قام بنفسهِ واخرجهُ من بين رفوف المكتبة وساعدني في البحث فيهِ

كنت ابحث عندهُ عن مدينة «سمرقند» عاصمة سلطنة آل اوزبك في اوائل القرن الثامن من الهجرة فكان يحمل اليَّ بنفسهِ اجزاء دائرة المعارف البريطانية مع ضخامة حجمها وثقل وزنها بغير تعب او ملل واخذ هذا البحث منا اياماً فلما عثرت اخيراً على موقع هذه المدينة في اطلس من اطالس جامعة كمبردج طرت اليهِ فرحاً والاطلس معي فكان سروره بذلك اضعاف سروري مع ان الامر كان يهمني دونهُ رحمهُ الله. وكان يعرف ميلي الى تطبيق آيات القرآن الكريم على الظواهر الطبيعية فلا يحبذني ذلك ويقول ان الآيات السماوية ثابتة حتى تقوم الساعة اما الظواهر الطبيعية فانها تتغير على مر الدهور

ومن مكارم اخلاقهِ انهُ لما بنى دارهُ في حي القصر العالي اوجردن سنة طلب اليَّ ان ادلهُ على النقاش الذي نقش سقف الجمعية الجغرافية ليصور لهُ سقفاً مثلهُ فاحضرت لهُ ذلك النقاش وهو المعلم عثمان المثيلاوي ولكن رأت بعد ذلك السيدة حرمهُ ان ينقش السقف على طراز آخر فجاء في الدكتور واخذني لنبحث عن مكان المعلم عثمان ليعتذر لهُ بنفسهِ مع انهما لم يتفقا على شيء بل كان الكلام في الموضوع مبدئياً لاغير. واذكر اني كنت اطالع معهُ في كتاب الاستاذ بطلر وتراجع رسم حصن قصر الشمع في جنوب الفسطاط فدخل علينا احد عمال المطبعة وقال ان النجار طلب مائة قرش اجرة كذا فقال لهُ الدكتور دعهُ يعملهُ فقال العامل هو عملهُ قال اعطهِ ما سأل فقال العامل لقد اعطيتهُ وانصرف

هذا المثال على ما فيهِ من البساطة يدل على كثير من سر تقدم المقتطف ونجاحهِ ويفهم منهُ تبادل الثقة بين الدكتور صروف وعمالهِ كما يبرهن على حسن طويتهِ واخلاصهم لهُ اذ بمجرد ما شعر العامل ان الحال في داع الى النجار بادر الى استدعائه واتم لهُ ما لزم من الاصلاح واعطاهُ اجرهُ وانصرف بغير انتظار الحصول على امر مولاهُ مخافة ان يتعطل العمل في المطبعة او يتسع الخرق فتزداد النفقات

ولولا حسن طوية الدكتور ما دار العمل في المطبعة على هذا الوجه ولما وصلت المجلة الى الحد الذي وصلت اليهِ من الكمال مدى نصف قرن تخدم فيهِ العلم ولغة العرب

فسلام على تلك الروح الطيبة في سموها وعلائها سلام عليها في نعيمها وهنائها. قامت الناس تهنئك في العام الماضي بعيدك الخمسيني الذهبي وسردت تاريخ حياتك بما يغبطك عليهِ عظماء الرجال وساداتهم. واليوم ستزيك ايتها الروح المطمئنة اقلام الكتاب في مشارق الارض ومغاربها بما اتاها الله تعالى من قوة وبلاغة وانا اتعيك بما رأيتهُ فيك من فضل ونبل فلك من الله حسن السبيل ولنا على فقدك الصبر الجميل

مصطفى منير ادهم